فرانشيسكو جابريللي

Francesco Gabrieli (١٩٠٤-١٩٩٦م)

مؤرخًا للحروب الصليبية

إعداد

أ.د. محمد مؤنس عوض

أستاذ تاريخ العصور الوسطي

كلية الآداب جامعة الشارقة

الملخص:

يحتل المؤرخ الإيطالي فرانشيسكو جابريللى مكانة بارزة من بين المستشرقين الإيطاليين. وقد أصدر دراسات مهمة بعنوان : **مؤرخو الحروب الصليبية العرب.** يسلط البحث الضوء على المؤرخ الإيطالي المذكور ورؤية لعصر الحروب الصليبية من خلال كتابة المذكور الذي أورد فيه نصوصًا كاملة لمؤرخين مسلمين معاصرين للأحداث.

Abstract:

The Italian Historian Francesco Gabrieli has special place among the Italian orientalists. He published several important works. One of them is Arab historians of the crusades. This paper focuses on Francesco Gabrieli Vision towards age of the crusades through his work in which he mentioned complete texts of Muslim contemporary historians of the crusades.

فرانشيسكو جابريللي

Francesco Gabrieli (١٩٠٤-١٩٩٦م)

يتناول هذا البحث بالدراسة تعريفًا بالمؤرخ الإيطالي فرانشيسكو جابريللي[١] ورؤيته لصلاح الدين الأيوبي ودوره في عصر الحروب الصليبية. ولد ذلك المؤرخ الإيطالي في روما يوم ٢٧ أبريل ١٩٠٤م، وقد تعلم اللغة العربية من خلال والده الذي عمل مكتبيًا في أكاديمية دي فينشي، وواصل تعليمه إلى أن حصل على الدكتوراه عن المتنبي.

عمل فرانشيسكو جابريللي خلال الأعوام من ١٩٢٨ إلى ١٩٣٥م كمحرر في دائرة المعارف الإيطالية، ثم قام بالتدريس في جامعة نابولي Napoli خلال الأعوام من ١٩٣٥ إلى ١٩٣٨م، ومن بعدها التحق بالعمل في جامعة روما حتى تقاعد عام ١٩٧٤م.

- أصدر ذلك المؤرخ الإيطالي عدة مؤلفات تتمثل في التالي :
- Storia Della Letterature Araba, 1951.
- تاريخ الأدب العربي ١٩٥١م.
- Storici Arabi Asalepieh Gli Arabi 1951.
- مؤرخو الحروب الصليبية العرب،١٩٥١م.
- Gli Arabi, 1957.
- العرب، ١٩٥٧م.
- The Arab Revival, Trans. Lovett F. Edwards, 1961.
- صحوة العرب، ت. لوفيت ف إدواردز، ١٩٦١م.
- Maometto e Le Grandi Conquiste Arabe 1967.
- محمد والفتوحات العربية الكبرى، ١٩٦٧م.

توفي ذلك المؤرخ الإيطالي في يوم ١٣ ديسمبر ١٩٩٦م.

middle-east2017@hotmail.com M.E.R.C ISSN 2536-9504

سيتم الاعتماد على كتاب جابريللي بعنوان: «مؤرخو الحروب الصليبية العرب» من أجل تسليط الأضواء الكاشفة على رؤيته لصلاح الدين الأيوبي، وذلك من خلال الترجمة العربية التي قام بها نبيل رضا المهايني تحت عنوان: المؤرخون العرب للحروب الصليبية، وصدر في بيروت عام ٢٠١٥م.

الملاحظة الأولى على دراسة ذلك المؤرخ الإيطالي استخدامه تعبير العرب بدلًا من المسلمين، وأتصور أن تعبير المسلمين أكثر دقة حتى لا نقع في منزلق التصنيف العرقي، خاصة أن حضارة الإسلام –عمومًا– شاركت فيها كافة الأقوام والأعراق، والعناصر.

من ناحية أخرى تناول جابريللي أمر صلاح الدين الأيوبي، وذكر ما نصه : "لم يكن لوصول صلاح الدين إلى الحكم إلا أن يؤدي إلى وقف عملية التتريك هذه، لكن من ناحية معينة فقط؛ إذ إنه عمل من ناحية أخرى على استمرارها. فهذا الأيوبي العظيم –كردي الأصل– تركي عربي اللغة والتربية، المسلم السني في عقيدته وأفعاله –جعل من مصر مركز سلطانه وأعادها للمذهب السني، كما إنه أعاد للعروبة هيبتها من جديد" (٢).

للتعليق على هذا النص نورد التالي:

أولًا: يبتدع ذلك المؤرخ فكرة الصراع العرقي بين الأتراك والأكراد وهي ذات أهداف استعمارية لا تخفى على أحد في حقيقتها تسعى إلى بذر بذور الانشقاق والانقسام؛ إذ ليست القضية تركي، وكردي بل الجهاد ضد الصليبيين وتطهير الأماكن المقدسة الإسلامية من وجودهم الغازي الدخيل.

ثانيًا: أصاب جابريللي عندما أدرك أهمية عودة مصر إلى المعسكر السني؛ إذ إن عام ١١٧١م الذي حدث فيه ذلك الإنجاز الكبير، سيؤدي إلى تغييرات جوهرية في ميزان القوى بين المسلمين والصليبيين لصالح الفريق الأول.

كما أشار على نحو موجز لمعركة حطين عام ١١٨٧م، وما حدث من بعدها من أحداث قائلاً : "عندما تلاقت الممتلكان سقط على صعيد حطين تاج القدس اللاتيني لك الحملة الصليبية الثالثة أتت لتسد الطريق على الهجوم الإسلامي ولتدعم وضع الدوليات الصليبية المتداعية على الساحل[٣]، والأمر المؤكد هنا أن تلك الحملة جاءت كنوع من الإنقاذ للكيان الصليبي الذي أصيب في مقتل عقب المعركة الحاسمة المذكورة.

من ناحية أخرى، ذكر عن الصراع الإسلامي– الصليبي حينذاك قولًا نصه كالتالي:" إن غزو الفرنجة وما ألحقوه بالإسلام من دمار ومذابح وأضرار، ثم المقاومة التي أبداها هذا الأخير والتي تكللت في النهاية بالنصر، لم تكن من المواضيع التي عالجها التاريخ الإسلامي في العصر الوسيط بصورة منفصلة ضمن دراسات متفردة[٤]. واقع الأمرممكن معارضة الرأي المذكور على أساس وجود كتابين عن الصراع المذكور أحدهما ألفه مؤرخ معاصر للحملة الصليبية الأولي (١٠٩٥–١٠٩٩م) هو حمدان الآثاربي (ت١١٧٤م) بعنوان :«سيرة الأفرنج الخارجين إلى بلاد الإسلام» وهو الذي يعد بمثابة أول كتاب عربي إسلامي عن الحملة الصليبية الأولى[٥]، والثاني هو ما ألفه الحريري (ت غير معروف) تحت عنوان «الإعلام والتبيين بخروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين.»

كما تعرض لصلاح الدين قائلاً:"لكن صورة صلاح الدين ارتفعت عاليًا فوق الجميع، حتى أنها فرضت إعجاب العدو بالذات، فهو بأصوله البسيطة، ومسيرته التي لم تخلُ أولى فتراتها من الغموض والعنف استطاع أن يجسد فيما بعد خلال إنتصاراته وغيرها هيبة، وإنسانية، وفروسية الحضارة الوسطى في الشرق، ذلك إلى جانب رفعه عاليًا وبتصميم بالغ لواء العقيدة والسنة"[٧].

واقع الأمر، يسير جابريللي هنا إلى جانب محوري في شخصية صلاح الدين يتعلق بعصاميته، إذ لم يكن ينحدر من أصول نبيلة، وبفضل كفاحه وصل إلى تلك

المكانة السامية التي بلغها، أما فيما يتصل بالعنف الذي أشار إليه، فالرد على ذلك حدوث صراع عسكري خلال مرحلة مضطربة لذلك كان من المحتم الصدام مع الأعداء وسقوط قتلى حينذاك.

من ناحية أخرى، نجد المؤرخ الإيطالي يستعمل تعبير الحضارة الوسطى في الشرق، وهو بالتالي لا يريد استخدام التعبير الأدق والأصح الذي هو الحضارة الإسلامية، التي هي لب القصيد كما يقال؛ لأن صلاح الدين الأيوبي كان نتاجًا حقيقيًا لتلك الحضارة.

وفي تقديري أن فروسية تلك الحضارة تأكدت تمامًا عندما واجه ذلك السلطان، الملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد (١١٨٩–١١٩٩م)؛ مظهر الفارق الشاسع بين فارس الحضارة الإسلامية، وبين ذلك الملك الإنجليزي السفاح الدموي.

يضاف إلى ذلك، أشار جابريللي إلى إسهام مؤرخين بارزين من عصر ذلك السلطان في الكتابة عنه هما بهاء الدين بن شداد (ت ١٢٣٤م)، والعماد الأصفهاني (ت ١٢٠٢م) وفي ذلك قال:" ترك لنا كل من بهاء الدين وعماد الدين صورة واضحة مثل صلاح الدين أميرًا مسلمًا مثاليًّا يتمتع بصفات تعمها مسحة إنسانية أكثر من الفروسية ،رغم هذا كله فإن الصورة التي رسموها لا تستطيع أن تبرر تبريرًا كاملًا المحبة الكبيرة التي كنها لذلك الرجل المعاصرون والمتأخرون في المعسكر الإسلامي أو في المعسكر المعادي على السواء"[٨].

كما لا نغفل أن إنسانية وفروسية صلاح الدين في عصر لطخه الصليبيون بالدماء على مدى المرحلة من ١٠٩٨إلى عام ١١٩٢م، هي التي جعلت صلاح الدين يحتل تلك المكانة السامية في نفوس المسلمين والصليبيين على حد سواء، ولا نغفل هنا دخوله السلمي إلى بيت المقدس في ٢ أكتوبر ١١٨٧م، وجاء ذلك على عكس ما أحدثه الصليبيون في بيت المقدس من مذبحة مروعة في الفترة من ١٥ إلى ٢٥ يوليو ١٠٩٩م، يضاف إلى ذلك كله، إتصال تاريخه بتاريخ إنجلترا من خلال صراعه

الحربي مع ريتشارد قلب الأسد، وتاريخ فرنسا من خلال دور فيليب أغسطس (١١٨٠-١٢٢٣م) وألمانيا عن طريق الإمبراطور فريدريك باباروسا(١١٥٢-١١٩٠م) بصورة أعطته بعدًا عالميًا فريدًا منذ حقبة العصور الوسطى.

يُضاف إلى ذلك عامل قدري أساسي لا يُنكر؛ إذ إن الله تعالي أراد رفع ذكر ذلك السلطان بتلك الصورة العجيبة شرقًا وغربًا !!. هكذا، فإن تبرير المحبة الكبيرة التي بحث عنها جابريللي واضح لا يتطرق إليه الشك.

وبعد ذلك، أشار ذلك المؤرخ الإيطالي إلى الأسطورة التي نسجت حول ذلك الفارس، قائلاً :"يبدو أن الأسطورة أعطته مكانًا في البرزخ الدانتيو في أشعار وروايات غربية عديدة، بقيت بكماء عنه في أرضه التي كرمت من كان أدني منه درجات، من الناحية الإنسانية أي "بيبرس"[٩].

واقع الأمر، تعليل وجود سيرة شعبية عن الظاهر بيبرس المؤسس الفعلى لدولة لسلاطين المماليك في مصر والشام (١٢٥٠- ١٥١٧م) يرجع إلى وجوده في مصر لأعوام عديدة من (١٢٦٠- ١٢٧٧م) بينما لم يمكث بها صلاح الدين بعد عام ١١٧٤م إلا مرحلة زمنية قصيرة، كما أن الخيال الشعبي المصري الخصب أراد تكريم بيبرس على اعتبار قيادته للمسلمين نحو فتح إمارة أنطاكية الصليبية عام ١٢٦٨م.

أما إشارته إلى أن أرض صلاح الدين لم تكرمه بل كرمت بيبرس، فالرد على ذلك إن صلاح الدين إلى يومنا هذا، صار رمزًا فريدًا وراسخًا في العقل الجمعي العربي والإسلامي والرموز لا تموت أبداً، وهذا هو قدرها ولا أدل على ذلك من آلاف الدراسات بالعديد من اللغات في كافة أنحاء العالم، وتوالى صدور العديد منها في مختلف بلدان العالمين العربي والإسلامي.

من زاوية أخرى، تعرض جابريللي للمؤرخ العراقي البارز ابن الأثير (ت ١٢٣٢م)، وأشار إليه على أنه كان شاهد عيان، ولم يكن دائم الإعجاب بفضائل صلاح الدين، وهو بالفعل شهد العديد من الأحداث، أما تعليل عدم إعجابه بصلاح الدين فيعود إلى إرتباطه بالزنكيين الذين ضمت أسرته لهم وأحاطوه بالرعاية.

لقد أعجب جابريللي بابن الأثير للغاية حتى وصفه بأنه المؤرخ الوحيد العربي في هذا العهد [١٠]، والواقع أن هذا الرأي مع تقديري التام للمؤرخ العراقي الفذ، صاحب الكامل في التاريخ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، واللباب في تهذيب الأنساب، والباهر، يؤدي بنا إلى إغفال مئات من المؤرخين المسلمين البارزين في عصر الحروب الصليبية وعهد صلاح الدين الأيوبي على نحو خاص.

من زاوية أخرى، أظهر تقديرًا خاصًا للمؤرخ بهاء الدين بن شداد مؤلف النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية وفي ذلك قال:"هي من أجود المصادر التاريخية والتصنيفية، وقد أملاها عليه تقاه الصادق وأعجابه التالي من أي خنوع أو محاباة أو مداهنة، وهي تعتمد في قسم كبير منها في التجربة المباشرة الممتلئة بأسلوب خال من المحسنات الأدبية، كما أنها تعطينا صورة كاملة عن هذا البطل من الجانب الإسلامي، فضلًا عن كونها تاريخ حي عن الحملة الصليبية الثالثة"[١١].

في تقديري أن أهمية الكتاب المذكور ترجع إلى عدة عوامل تجمل على النحو التالي :

١- وجود "نوع من الكمياء المشتركة بين صلاح الدين الأيوبي وبهاء الدين بن شداد، على نحو جعله مستشاره الشخصي فلازمه طوال الست سنوات الأخيرة من حياته الواقعة بين عامي ١١٨٨، ١١٩٣م.

٣- عدم اقتصار الكتاب على سيرة صلاح الدين كشخص فقط، بل تناوله لأفراد عاديين عاصروه، وكأنه يريد أن يقول ضمنيًا أن ذلك السلطان ابن عصره الذي صنعه.

٣- الأسلوب الأدبي السلس الذي صاغ به أفكاره، لذلك تأكد لنا أننا أمام قاضٍ، ومؤرخ، وأديب بصورة تفوق بها على أسلوب العماد الأصفهاني المبالغ في الزخرفة اللفظية على حساب الكتابة التاريخية.

٤- تمكن بهاءالدين بن شداد من الغوص في أعماق نفسية صلاح الدين منتصرًا ومهزومًا وبالتالي تمكن- بإقتدار- من أن يقدم لنا صلاح الدين الإنسان بصورة حية لم نجدها لدى العديد من المصادر التاريخية المعاصرة والمتأخرة لدى الجانب الإسلامي.

أما العماد الأصفهاني؛ فقال عنه:" وصل إلينا كاملًا، وهو الآن مطبوع مؤلفه عن فتح القدس والذي يصل حتى وفاة صلاح الدين، وهو"الفتح القسّي في الفتح القدسي". أما كتاب "البرق الشامي" فلم يصل إلينا كاملًا، كما أنه مازال غير مطبوع، وهو يتناول حياة ومكارم صلاح الدين منذ عام ١١٧٥م، على أن الدراسات الحديثة بدأت تجد تحت شكل هذين المؤلفين الذي لا يطاق مصدرًا واسعًا لسيرة الأيوبي الكبير وللحوادث التي كان بطلها في سوريا وما بين النهرين، كما أنها رأت في إمام الدين (يقصد العماد الأصفهاني) مؤلفًا قيمًا دقيقًا وأمينًا وغنياً بالمعلومات المهمة" [١٢].

لقد كتب جابريللي هذه السطور عام ١٩٥٧م أي منذ ستين عامًا، لكن الآن ندرك تمامًا أن كتاب "البرق الشامي" قد حقق في عدة أجزاء ولا أدل على ذلك من قيام المحقق فالح صالح حسين من تحقيق مجلدين منه وصدر من جانب مؤسسة عبد الحميد شومان بعمان عام ١٩٨٧م، والمجلدان المذكوران يتناولان الأحداث الواقعة بين ٥٦٢، ٥٨٩ هـ ولم يتم العثور إلا على الجزئيين الثالث والخامس، يضاف إلى ذلك، أن لدينا مختصر البرق الشامي في صورة كتاب الفتح البنداري (ت ١٢٥٢م) بعنوان :"سنا البرق الشامي" وقد حققته فتحية النبراوي وصدر بالقاهرة عام ١٩٧٩م. تلك رؤية المؤرخ الإيطالي فرانشيسكو جابريللي لصلاح الدين الأيوبي، ويمكن استنتاج بعض الملاحظات عليها تجمل على النحو التالي:

أولاً : حظى صلاح الدين بتقدير ذلك المؤرخ والإشادة به، وأشار إلى الأسطورة التي نسجت عنه، وتعرض للمؤرخين المسلمين الكبار الذين تناولوا تاريخه خاصة ابن الأثير، وبهاء الدين بن شداد، والعماد الأصفهاني.

ثانياً : إنحاز جابريللي لابن الأثير كمؤرخ بصورة فعلية في مكانة أرقى من غيره من المؤرخين، دون إدراك منه أنهم جميعًا أبناء المدرسة التاريخية العراقية التي يطلق عليها "المدرسة الأم" نظرًا لظهور مجموعة من كبار المؤرخين فيها، ولتأثيرها الكبير على المدارس التاريخية الأخرى مثل المدرسة الشامية وكذلك المصرية والأندلسية.

ثالثًا: أنطلق ذلك المؤرخ الإيطالي من زاوية تدعم العنصر العربي، والمفترض أن تكون رؤيته ذات طابع إسلامي عام، لكن هكذا يكون المستشرقون[١٣]– في أغلبهم الأعم– ينطلقون من منطلقات تسعى للتفكيك والتجزئة والتصارع العرقي والطائفي خدمة لمصالح الغرب.

ذلك عرض عن صورة صلاح الدين الأيوبي (١١٣٨– ١١٩٣م) لدى المؤرخ الإيطالي فرانشيسكو جابريللي (١٩٠٤– ١٩٩٦م).

الهوامش

(١) عن فرانشيسكو جابريللي أنظر: موقع ويكيديا شبكة الإنترنت.

(٢) جابريللي، المؤرخون العرب للحروب الصليبية، ت. نبيل رضا المهايني، ط. بيروت ٢٠١٥م، ص١٥- ص١٦.

(٣) نفسه، ص١٦.

(٤) نفسه، ص ١٧.

(٥) عن حمدان الأثاربي وكتابه أنظر:

العظيمي، تاريخ حلب، تحقيق عبد العظيم زعرور،ط. دمشق ١٩٨٤م، ص١٤٧، ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين

العمروي،جـ١٥، ط. بيروت ١٩٩٥م، ص١٦١، ابن العديم الحلبي، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار،جـ٦ ،ط. دمشق ١٩٨٨م، ص٩٦٦.

Paris 1940, P.40. C.Cahen, la Syrie du nord al epoque des Croisades,

(كان المستشرق الفرنسي كلود كاهن أول من لفت الأنظار إلى ذلك المؤرخ)، عصام عقله ويوسف بني ياسين، المؤرخ حمدان الأثاربي (٤٦٠-٥٤٢هـ / ١٠٦٨- ١١٤٧م) وكتابه سيرة الأفرنج الخارجين إلى بلاد الإسلام، دراسة في تاريخ أول كتاب عربي إسلامي عن الحملة الصليبية الأولى، ضمن كتاب بحوث ودراسات مهداة إلى الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت بمناسبة بلوغه سن السبعين، الجامعة الأردنية عام ٢٠١٣م، ص١٦١- ص١٩٣، (دراسة ممتازة لأثنين من المؤرخين العرب الجادين)، محمد مؤنس عوض، معجم أعلام عصر الحروب الصليبية في الشرق والغرب، ط. القاهرة ٢٠١٥م، ص ١٦٦- ص١٦٧.

(٦) تحقيق سهيل زكار،ط. دمشق ١٩٨١م.

(٧) جابريللي، المرجع السابق، ص٢٢.

(٨) نفسه، نفس الصفحة.

(٩) نفسه، نفس الصفحة.

(١٠) نفسه، ص٤٠.

(١١) نفسه، ص٤٢.

(١٢) نفسه، ص٤٣.

(١٣) عن الاستشراق والمستشرقين أنظر:

نجيب العقيقي، المستشرقون،ط. القاهرة ١٩٦٥م، فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الإسلامي (القرون الإسلامية الأولي) ،ط. بيروت ١٩٩٨م، عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ط. بيروت ٢٠٠٣م. ،عبد الله يوسف، مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين، مراكز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ،ط. أبوظبي ٢٠٠١م.